الفصل الثاني

سَيِّدُ الشُّفَعاءِ

* أَوَّلُ شَفِيعٍ.
* الْفَاتِحُ الأَوَّلُ.
* الدَّعْوَةُ الْمُخَبَّأَةُ.
* «اَللَّهُمَّ : أُمَّتِي.. أُمَّتِي»
* عَدَدُ الْخَصائِصِ النَّبَوِيَّةِ.

أَوَّلُ شَفِيع

أخرج مسلمٌ في صحيحِه بسندِه عن أنسِ بنِ مالكٍ، قال: قال النبيُّ ﷺ: «أنا أَوَّلُ شَفيعٍ فِي الجَنَّةِ، لَمْ يُصَدَّقْ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبياءِ ما صُدِّقْتُ، وإنَّ مِنَ الأنْبياءِ نَبِيًّا ما يُصَدِّقُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إلَّا رَجُلٌ واحِدٌ.»

***

هذا الحديثُ الشريفُ يُبَيِّن نماذِجَ من فضلِ اللهِ تبارك وتعالَى على سَيِّدِنا محمدٍ ﷺ فهو أوّلُ شفيعٍ في الجنّةِ، بمعنى أنه ﷺ أول طالبٍ للشفاعةِ، ليُدْخِلَ بهذِه الشفاعةِ بعضَ أُمّتِه إلى الجنّة.

وقد ورد في بعض الروايات أنه ﷺ أوّل من يَقرع بابَ الجَنَّةِ، بمعنى أنه ﷺ يتقدّم السابقين من أُمّته ليفْتحَ لهم بابَ الجَنَّةِ حتى يلِجُوا فيها. وعن كيفيةِ هذا القَرْعِ يقول عليْهِ الصلاةُ والسلامُ: «آتِي بابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخازِنُ: «مَنْ أَنْتَ؟» فَأَقُولُ: «مُحَمَّدٌ»، فَيَقُولُ: «بِكَ أُمِرْتُ، لا أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ».

ويسُوقُ النبيُّ ﷺ نَمُوذجًا آخرَ من فضلِ اللهِ تبارك وتعالَى عليْه: فهُوَ أَكْثَرُ الأنبياءِ تبعًا، لأنه آخرُ الأنبياءِ، وصاحِبُ الرِّسالةِ العامّةِ الخالدةِ، إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليْها. فعَلَى مَدَى الأجيالِ والأزْمانِ والأماكِنِ تتقلَّبُ الدعوةُ الإسلاميةُ نورًا وهدايةً...

وإذا كنّا اليوم أكثرَ من مليارِ مُسْلم في مشارقِ الأرضِ ومغاربها، فكمْ كان المُسلمون بالأمسِ؟ وكم يكونونَ هذا وإلى ماشاء الله؟! .

إنَّ ارتباطَ المسلمين بنبيِّهم ﷺ ارتباطٌ صحيحٌ لم يخرُجْ عن الحقِّ وأُصولِ الدين.. أمَّا ارتباطُ غير المُسلمين بأنبيائِهم فهو ارتباطٌ كاذبٌ يتبرأ منه الأنبياء.. قال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٥٢) ﴾[١].

ثمَّ إنَّ الأنبياءَ السابقين كانتْ رسالتُهمْ محدودةً زمانًا ومكانًا، فكلُّ نبيٍّ بُعث إلى قومِهِ خاصَّة، وانتهتْ رسالتُه ببعثةِ النبيِّ الذي بعده. فالذين آمنوا بالرُّسُلِ السابقين محدُودون ولننظرْ إلى نوح عليه الصلاةُ والسَّلامُ، وهو أطولُ الأنبياءِ عمرًا، ومكثَ في قومِه داعيًا ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاما، ومع ذلك فقد وصف القُرآن المجيدُ المُؤمنينَ به بأنهم قِلَّة، قال تبارك وتعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ﴾[٢].

---

(١) سورة النساء الآيات ١٥٠ - ١٥٢.

(٢) سورة هود الآية ٤٠.

الْفَاتِحُ الأَوَّلُ

أخرج مُسلمٌ في صحيحِه بسندِه عن أنس بن مالك، قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «آتِي بابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخازِنُ: «مَنْ أَنْتَ» فَأقولُ: «مُحَمَّدٌ» فيقُولُ: «بِكَ أُمِرْتُ.. لا أفْتَحُ لأحَدٍ قَبْلَكَ».)

***

هذا مشهدٌ كريمٌ من مشاهدِ اليومِ الآخرِ يكون إعْلاءً لشأنِ نبيِّنا محمدٍ صلّى الله عليْه وعلى آلِه وصَحْبه وسَلَّم، وامتدادًا لصِدْقِ الوعدِ الإلهي: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝ ﴾ (١).

لقد تعدّدت ألوانُ الفضْلِ الإلهيّ على محمدٍ ﷺ في هذا اليوْمِ المشهودِ، بدءًا بالشفاعةِ العُظمى، ومُرورًا بالحوْضِ الشريفِ والشَّفاعاتِ لأُمَّةِ الإسلام، وانتِهاءً بهذا التشريفِ العظيم..

إنَّ سيِّدَنا محمدًا ﷺ يأْتِي إلى الجنَّةِ ويتقدّم السابقين واللّاحقينَ، وهُمْ جميعا تبعٌ له وخلْفَ لوائِه المَرفوعِ.. ويستفتِحُ، أي: يطلبُ فتْحَ أبوابِ الجَنَّةِ، كيْ يلِجَ المؤمنون من أمَّةِ الإسلام ومِنْ كافةِ الأُمَم.. فالمُؤمنون يُساقون إلى الجنَّةِ جماعاتٍ جماعات، والكافِرون يُساقُون إلى جهنَّمَ جماعاتٍ جماعاتٍ.. لكِنْ شتّانَ مابينَ الفريقين! ..

(١) سورة الشرح الآية ٤.

إنَّ سَوْقَ المؤمنين: في مواكِبِ النُّور، تحفُّهمْ ملائِكَةُ الرحمةِ وإنَّ سَوْقَ الكافِرين: في متاهاتِ الظُّلمةِ، تُطارِدُهم ملائكةُ العذابِ من كُلِّ جانب..

قال تبارك وتعالى:

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ (1).

وقال جلَّ شأنُه:

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ (2).

وقال سُبحانه وتعالى:

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (12) يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ (13) ﴾ (3).

وعندما تصِلُ مواكبُ النُّورِ إلى أبواب الجَنَّةِ يتقدَّمُهم المُصْطَفى الأمينُ سَيِّدُنا محمدٌ ﷺ، ويتساءَلُ خازِنُ الجنَّةِ عن هذا المُقَدَّمِ المُختار، فيقولُ: «أنا مُحَمَّدٌ» فيُعْلِنُ هذا الخازِنُ أمامَ الأشهادِ: «بِكَ أُمِرْتُ.. لا أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ.»

فيَفْتَحُ البابَ، ويتقدَّمُ الرسولُ الأعظمُ، وتتوالَى مواكِبُ النور.

---

(1) سورة الزمر الآية 71.

(2) سورة الزمر الآية 73.

(3) سورة الحديد الآيات 12 – 13.

الدَّعْوَةُ الـمُخَبَّأَةُ

أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجابَةٌ.. فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوتِي، شَفاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ القِيامَةِ؛ فَهِيَ نائِلَةٌ - إنْ شاءَ اللهُ - مَنْ ماتَ مِنْ أُمَّتِي لايُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا» ..

***

دُعاءُ الأنبياءِ كلُّه مُستجابٌ لأنهم أقربُ إلَى اللهِ تبارك وتعالَى، وأكثرُ عبادةً له سبحانه، وهُمُ الذين يُكرِمُهم اللهُ أمامَ أقوامِهم بإجابةِ دُعائِهم، تصْديقًا لهم فِي نُبُوَّتِهم..

فماذا يعْنِي - إذن - قَوْلِهِ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوةٌ مُسْتَجابَةٌ» ؟ هل هي دعوةٌ واحدةٌ مُستجابةٌ، وباقي الدَّعواتِ لايُستجاب لها ؟!

ذهب العلماءُ إلَى أنَّ مقصودَ الحديثِ الدعوةُ الـمُتيقَّنة، فلكلِّ نبيٍّ دعوةٌ يَقطعُ باستجابةِ اللهِ تباركَ وتعالَى له فيها.. أمَّا باقي الدُّعواتِ فهي على رجاء الإجابةِ وليس على القطعِ، أو أنَّ الـمُراد: لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ عامَّةٌ في قوْمِه مُحقَّقة.. أما باقي الدُّعواتِ فقد تكون خاصةً لفردٍ أوْ أفراد..

وهذه الدعوة العامة الـمُتيقَّنة تعجَّلها الأنبياءُ السَّابقون في الدُّنيا،

ودعوْا بها على أقوامِهم المُكذِّبين، بعد أن طال العِنادُ واستحكمَ الفسادُ وتسلّط الكُبراءُ والطغاة..

فنوحٌ عليه الصَّلاةُ والسلام - بعد جهادٍ طويل ومرير - ما آمن معه إلا قليل، فدعا على قومه:

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (١).

واستجاب اللهُ الدعوةَ، فأمر نوحًا بصُنع السفينةِ وحمْلِ المُؤمنين فيها ثمَّ فتَح اللهُ السماءَ بماءٍ مُنهمر، وفجَّر الأرضَ عُيونًا.. وكان الموْجُ كالجبالِ، وقيلَ: بُعْدًا، أيْ: هلاكًا لِلقوْمِ الظّالِمينَ.

وَمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام يئِس من إيمانِ فِرعَوْنَ وَقوْمه:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٢).

وتمثّلت هذه الإجابةُ في أنّ الغرَقَ أدْرك فِرعونَ وجنودَه، وغشِيَهم من اليَمِّ ماغشِيَهم..

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٣).

---

(١) سورة نوح الآيات ٢٦ - ٢٧.

(٢) سورة يونس الآيات ٨٨ -٨٩.

(٣) سورة الدخان الآية ٢٩.

وهكذا تعجّل كلُّ نبيٍّ دعوتَه فى قَوْمِه. فماذا فعَل رسولُ اللهِ ﷺ ؟!

إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ : أخّر دعوتَه العامَّةَ المُتيقَّنَةَ فى قوْمِهِ إلَى يومِ القِيامَةِ، ولم يتعجّلْها فى الدُّنيا، وذلك لكمالِ شفقتِهِ ورحمتِهِ بأمّتِهِ، كما قال تبارك وتعالى:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (١).

إنَّ دعوةَ الآخرةِ خيرٌ من دعوةِ الدُّنيا، فالآخرةُ خَيْرٌ وأبقى، وإنَّ الدعوةَ فِى الشِّدَّةِ أنفعُ من الدعوةِ فى الرّخاءِ؛ فوقتُ الشِّدةِ أحْوجُ الأوقاتِ إلَى الدُّعاء.. وهذه الدعوة النبويّة العامَّةُ تنالُ كلَّ المسلمين المُوَحِّدين، الذين أيقنتْ قُلوبُهم بوحدانيّةِ اللهِ تبارك وتعالَى، ونُبُوَّةِ محمدٍ ﷺ، والتصديقِ الجازمِ بكلِّ ماعُلِم من الدِّين بالضَّرورةِ: كالصلاةِ والصيام والزكاةِ والحجِّ وسائرِ المأموراتِ والمَنْهيّات.. فإذا مات الإنْسانُ على تلكَ العقيدةِ الصحيحةِ، فإنّ الشفاعةَ تَلْحَقُه، مهما كانت أعمالُه بعد ذلك..

وقد جاء فى بعض رواياتِ الصحيح: فَأَقُولُ: «رَبِّ أُمَّتِى.. أُمَّتِى» فَيُقالُ: [انْطَلِقْ، فَمَنْ كانَ فِى قَلْبِهِ مِثقالُ حَبَّةٍ مِنْ بُرَّةٍ أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إيمانٍ، فَأَخْرِجْهُ منها»

فالإيمانُ هو أساسُ الثّوابِ، ومن لا إيمانَ له فلا ثوابَ له، قال تبارك وتعالى فِى حقِّ الكافرين:

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨.

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (١).

وهُنا نُؤكِّد أنَّ الشفاعةَ قد تُدرك المؤمنين، فلا يدخلون النَّارَ بمعاصيهم، لحِكمةٍ يَعلمُها اللهُ تبارك وتعالى، وقد تُدركُهم بعد أنْ يقضوا فِى النَّار حِقَبًا طويلةً أو قصيرةً.. وهذا ماتُؤكِّده الآيةُ الكريمةُ:
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ (٢).

وصاغَ أهْلُ الحَقِّ هذا المعْنى فِى نَظْم شِعْرِىٍّ هكذا:

وَواجِبٌ شَفاعَةُ المُشَفَّعِ ... مُحَمَّدٍ، مقدَّمًا لا تَمْنَعِ
وَغَيْرُهُ مِنْ مُرْتَضَى الأَخْيارِ ... يَشْفَعُ، كَما قَدْ جاءَ فِى الأَخْبارِ
إِذْ جائِزٌ غُفْرانُ غَيْرِ الكُفْرِ ... فَلا نُكَفِّر مُؤْمِنًا بالوِزْرِ
وَمَنْ يَمُتْ وَلَمْ يَتُبْ مِنْ ذَنْبِهِ ... فَأَمْرُهُ مُفَوَّضٌ لِرَبِّهِ

---

(١) سورة الفرقان الآية ٢٣.
(٢) سورة النساء الآية ١١٦.

اَللَّهُمَّ: أُمَّتِي.. أُمَّتِي

أخرج مسلمٌ في صحيحِه بسندِه عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو بنِ العاصِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ تلا قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ في إبْراهِيم عليْه الصَّلاةُ والسَّلامُ:

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١).

وقولَ عيسى عليْه الصلاةُ والسلامُ:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٢).

فرفع يديْه وقال:

«اللَّهُمَّ: أُمَّتِي.. أُمَّتِي» وبكَى، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ:

[ياجِبْرِيلُ، اِذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ – وَرَبُّكَ أَعْلَمُ – فَسَلْهُ: مايُبْكِيكَ؟]

فأتاه جبريلُ عليْه الصَّلاةُ والسَّلامُ فسأله؛ فأخبره رسولُ اللهِ ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال اللهُ: [ياجِبْرِيلُ.. اِذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلا نَسُوءُكَ..]

***

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٦.

(٢) سورة المائدة الآية ١١٨.

دُعاءُ إبْراهِيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ

كان النبيُّ ﷺ يقرأُ القرآنَ ويفقَه معانِيَهُ، ويُدْرِكُ مقاصِدَه، ويتفاعلُ معه؛ فيدْعُو في مواطنِ الدُّعاءِ، ويسْتعيذُ في مواطنِ العِقابِ، ويُسبِّح في مواطنِ التَّسْبيحِ وهكذا.

لقد تلا النبيُّ ﷺ دُعاءَ إبراهيمَ الخليلِ، الذي قصَّه القُرآنُ المجيدُ في قوْلِه جلَّ شأنُه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١).

فإبراهيمُ عليْه الصَّلاة والسَّلامُ أراد الحِفاظَ على البيئةِ، حتى تكون صالحةً للتربية، فقال: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ (٢)

والأمنُ هو نِعمةُ النِّعَم. وحين يأمَنُ الناسُ يعبدون ربَّهم، قِيامًا وقُعودًا وعلى جُنوبِهِمْ، ويسْتَغْلنون بإيمانِهم، ويستطيعونَ أن يُمارِسوا حياتَهم الصحيحةَ الكاملةَ غير منْقوصة..

ثُمَّ دعا إبراهيم عليْه الصلاة والسلامُ أنْ يَحْفظَهُ اللهُ وذُرِّيَّتَه، ويُباعِدَ بينهم وبين عبادةِ الأصنام، تلك العبادةُ التي تمْتَهِن كرامةَ الإنْسانِ، وتُضيع عِزَّتَه أمامَ أحجارٍ لاتنفعُ ولا تضُرُّ. ولقد خُدِع بهذه العبادةِ أجْيالٌ من بني الإنسانِ، مُنْذ عهْدِ نوحٍ عليْه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَى اليوْمِ،

---

(١) سورة إبراهيم الآيات ٣٥ - ٣٦.

(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٥.

وانتشرت الوثنية في أماكن كثيرة، في مصر القديمة وبلاد الرافدين والشام والهند والصين وفارس واليونان والرومان والجزيرة العربية..

وقد تبرأ إبراهيم عليه الصلاة والسلام من هذا الانحراف العقدي، وردُّ أمر المنحرفين الضالين إلى الله عز وجل. إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم. فهو سبحانه وتعالى صاحب الخلق والأمر: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[1].

دعاءُ عيسى عليهِ الصلاةُ والسلامُ

دعا عيسى عليه الصلاة والسلام ربه قائلًا:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[2]

فهذا مشهد من مشاهد القيامة يحكيه القرآن المجيد، كأننا نراه رأي العين، إن المشهد يقع أمام الأولين والآخرين، ويبدأ بهذا النداء القدسي:

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾[3].

فيأتي الجواب الحق من النبي المعصوم: عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم: ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٣.

(٢) سورة المائدة الآية ١١٨.

(٣) سورة المائدة الآية ١١٦.

أَللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (١).

لقد قرأ سيِّدُنا محمدٌ ﷺ هذا الحِوارَ في هذا المَشهدِ، ووقف عند نهايةِ حِوارِ عيسَى عليه الصلاةُ والسلامُ في قوله تبارك وتعالى:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٢).

والمقصودُ من هذا التعبيرِ: رَدُّ الأمرِ كلِّه إلى اللهِ تبارك وتعالى، والتسليمُ المُطلقُ للمشيئةِ الإلهيَّةِ. وهو يلتقي مع دعاءِ إبراهيمَ الخليل عليه الصلاةُ والسلامُ في حقِّ عَبدَةِ الأصْنام: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٣).

وليس يُقصد من مثل هذه التعبيراتِ تجْويزُ مغفرةِ الكُفرِ، والعفْوِ عن الكافرين، مِنْ غيْرِ توبةٍ صادقةٍ في الدُّنيا..

إنَّ اللهَ تبارك وتعالى وعَد بقبولِ توبةِ التَّائبين في هذه الدُّنيا، فقال جلَّ شأنُه: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ۖ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٤).

وتوعَّد اللهُ سُبحانه وتعالَى من مات كافرًا بالخُلودِ الأبديِّ في الجحيم، ولن تنفعَهم شفاعةُ الشَّافِعين، فقال جلَّ شأنُه:

---

(١) سورة المائدة الآيات ١١٦ – ١١٧.

(٢) سورة المائدة الآية ١١٨.

(٣) سورة إبراهيم الآية ٣٦.

(٤) سورة الأنفال الآية ٣٨.

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ (١).

دُعاءُ الرَّسُولِ ـ ﷺ ـ لأُمَّتِهِ

عرفْنا دُعاءَ إبراهيمَ وعيسى عليْهما الصلاةُ والسَّلامُ لِمُخالِفيهِمْا، وأنَّهما فوَّضا الأمرَ للهِ عزَّ وجلَّ، وقد قرأ الرسولُ ﷺ هذا الدعاءَ فى القرآنِ الكريم، فماذا كان موْقفُه ﷺ؟

يقول الرَّاوِى – كما أخرجه مسلمٌ فى صحيحه :

فرفَع يديْه وقالَ: «اَللَّهُمَّ أُمَّتِى.. أُمَّتِى» ، وبكَى..

لقد أدْرك الرسول ﷺ خُطُورةَ الموْقفِ وشِدَّةَ الهوْلِ وعِظَمَ الخَطْبِ، وأجْهش بالبُكاءِ، وجارَ إلَى اللهِ بالدُّعاء : «اَللَّهُمَّ أُمَّتِى أُمَّتِى» .. يريد الرحمةَ الكاملةَ لأُمَّتِه، ويُشْفِق عليْها من بأْسِ اللهِ وعِقابِه..

حينئِذٍ بعَث الله تبارك وتعالى مَلَكَ الوحْيِ جِبْريلَ الأمينَ إلَى رسولِه الكريم، وحمَّله هذِه الرِّسالةَ:

[ياجِبْريلُ: اِذْهَبْ إلَى مُحَمَّدٍ – وَرَبُّكَ أَعْلَمُ – فَسَلْهُ: مايُبْكِيكَ؟]

فنزلَ جبريلُ. وسألَ المُصْطفَى عن سِرِّ بُكائِه أثْناءَ دُعائِه، فأفْضَى

(١) سورة النساء الآيات ١٧ – ١٨.

إليهِ الرســولُ ﷺ بما انْتَشَعره في قلبه على أُمَّتِه.. ورجَع جبريلُ إلَى ربِّه - عزَّ وجلَّ - حاملاً دُعاءُ النبيِّ ﷺ لأُمَّتِه، فجاء جبريلُ بالبُشرى وحمل وعْدًا إلاهيًا، نصُّه هكذا:

[اِذْهَبْ إلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إنَّا سَنُرضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلا نَسُوءُكَ] .

وهذا الوعدُ الإلهيُّ يلتقي مع الآيةِ الكريمةِ:

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ ﴾[1].

فعطاءُ اللهِ تبارك وتعالى لرسوله في نفسهِ وفي أُمَّتِه، ففي نفسِه: فهوَ الرسولُ الخاتَمُ، وسيِّدُ ولدِ آدمَ، وأوّلُ شافعٍ، وأوّلُ مُشَفَّعٍ.. وفي أمَّتِه: فهِيَ خيرُ أُمَّةٍ أُخرِجت للناس، ولنْ يُخَلَّدَ أحدٌ منها في النَّار، كما جاء في صحيح الحديث: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ.. وَإنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي، شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ القِيامَةِ؛ فَهِيَ نائِلَةٌ - إنْ شاءَ الله - مَنْ ماتَ مِن أُمَّتِي، لايُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا».

ولاشكَّ أنَّ ربَّنا جلَّ جلالُه يَعلم السِّرَ وأخْفَى؛ لكنَّ المسألةَ جرَتْ على هذا المنوالِ، من السؤالِ والجوابِ، والذهابِ والمجيءِ، لإظهارِ شرَفِ الرسولِ ﷺ، وأنَّ له مكانةً ساميةً ومنزلةً رفيعةً عند ربِّه تبارَك وتعالَى؛ وأنه ﷺ يُسترضَى ويُكَرَّم.. وهذه المنزلة لرسولنا ﷺ تدفعُ المسلمَ إلَى مزيد الولاءِ لله ولرسوله ﷺ، وإلى حُسنِ الاقتداءِ بهذا النبيِّ العظيمِ وذلك الرسولِ المُشَفَّع..

---

(١) سورة الضحى الآية ٥.

عَدَدُ الْخَصائِص النَّبَوِيَّة

أخرج البخاريُّ في صحيحِهِ بسندِه عن جابرِ بن عبدِ الله أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا، لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي؛ نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْر، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّما رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفاعَةَ، وَكانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عامَّةً»..

***

يذكرُ هذا الحديثُ الشريفُ بعضَ خصائصِ المُصْطفى ﷺ، تلك الخصائِصِ التي جمَعهـا الله تبارك وتعالى لـه، ولم تتحقَّق لنبيٍّ قبْلَه مُفْرَدةً ولا مجتمعةً..

والحديث هنا يذكر خمسا، هي:

١ – النَّصْرُ بالرُّعبِ مسيرةَ شَهر.

٢ – جعْلُ الأرضِ مسجدًا وطَهورًا.

٣ – حِلُّ الغَنائِم.

٤ – إعْطاءُ الشَّفاعةِ.

٥ – عُمومُ الرِّسالةِ.

وجاءتْ أَحاديثُ أُخرى بخصائِصَ تشـتركُ مع هذه، وتزيدُ عليها. ومِـن خِلالِ الزِّيـادات الحديثيةِ المرويّةِ في الصحيحيْن، نسـوقُ أَربعًا أُخرى هي:

١ – إِعْطاءُ جوامعِ الكَلِم.

٢ – خَتْمُ النُّبُوَّةِ.

٣ – صُفوف صَلاتِنا كصُفوفِ الملائكةِ.

٤ – الآياتُ من آخرِ سورةِ البقرةِ مِنْ كَنْزٍ تحْت العرشِ.

ففي صحيح مسلم بسنده عن أَبي هريرة، قال:

قال رسول الله ﷺ :

«فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبياءِ بِستٍّ: أُعْطِيتُ جَوامِعَ الْكَلِم، وَنُصِرْتُ بالرُّعْب، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْـجدًا وَطَهُورًا، وَأُرْسِـلْتُ إِلى الْخَلْق كافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ.»

وفي صحيح مُسْلم عَنْ حُذَيْفةَ، قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ :

«فُضِّلْـتُ عَلَـى النَّاسِ بثَـلاثِ خِصالٍ : جُعِلَـتْ صُفُوفُنـا كَصُفُوفِ الـمَلائِكـةِ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْـجِدًا وَطَهُـورًا، وذَكَرَ خَصْلَةً أُخْرَى وَلَمْ يُسَمِّها.

وقد فُسِّـرتْ هذه الخَصلةُ الأُخرى في رواياتٍ للنّسـائِيِّ وابْنِ خُزَيْمَةَ، بِأَنَّها: «أُعْطِيتُ هذِهِ الآياتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ» .

وجاءتْ رِواياتُ السُّنَنِ والمسانيدِ تُضيف سبْعَ خصائِصَ أُخرى، وهي:

١ – إعْطاءُ مَفاتِيحِ الأَرْضِ.
٢ – تَسْمِيَتُهُ ﷺ أَحْمَدَ.
٣ – أُمَّتُهُ خَيْرُ الأُمَمِ.
٤ – مَغْفِرَةُ الذُّنُوبِ: ماتَقَدَّمَ وماتَأَخَّرَ.
٥ – إعْطاؤُهُ الكَوْثَرَ.
٦ – صاحِبُ لِواءِ الحَمْدِ.
٧ – إسْلامُ الشَّيْطانِ عَلَى يَدَيْهِ ﷺ.

قال الإمامُ ابنُ حجَر: ويُمكِن أن يوجدَ أكْثرُ مِنْ ذلِك لِمن أمْعَن التَّتَبُّعَ. وقد ذكر أبو سعيدٍ النيسابورى فِى كتابِ «شَرَفُ الـمُصطَفى» أنَّ عددَ الذى اخْتُصَّ بِهِ نبيُّنا ﷺ عن الأنبياءِ سِتُّون خَصْلة.

وهذه الخصائصُ الخَمْسُ التى قدّمها الحديثُ الشريف لم يمنحْها اللهُ تبارك وتعالَى لنبيٍّ قبْلَ رسولِ اللهِ سيِّدِنا محمدٍ ﷺ، وهى:

الأولَى: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»: أى: إنَّ اللهَ تعالَى يقذِف فِى قلوبِ أعداءِ الرسولِ الرُّعْبَ، فيجْبُنون عن مُلاقاتِه، ويفِرُّون عن مُواجهتِه، مع بُعد المسافةِ بيْنَهُما، فهُناك معاركُ حربيةٌ قاتل فيها الرسولُ ﷺ، وهُناك معاركُ أُخْرى استَسْلم فِيها الأعداءُ دون قِتال..

وَعَلَى سبيل المِثالِ، فإنَّ غزْوةَ تبوكٍ فِى العام التاسِع للهجْرةِ انتهتْ بتفرُّقِ الرُّومِ رُعْبًا من المسلمين، وحقَّق الرسولَ ﷺ نصرًا عظيمًا فِى أرضِ الشام..

الثانية: «وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا» : فالمُسلم يُصلّي حيث أدركته الصلاةُ فِي أيِّ بُقْعةٍ مِن أرضِ اللهِ الواسعةِ. فالأصلُ في الأرضِ الطهارةُ حتى يَثْبُتَ العكسُ. وإذا فقد المسلمُ الماءَ: حِسًّا أو معنًى للوضوء أو الغسل، تيمّم صعيدًا طيبًا..

أما غير المسلم فترتبط عباداتُهم بأماكِنَ خاصةٍ يُشَيِّدونها، ولاتجوزُ في غيرها.

الثالثة: «وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي» : وذلك لأن اللهَ تبارك وتعالى شرّع الجهادَ فِي الإسلام وأذِن في ردِّ العُدوان. وغالبًا تنتهي المعاركُ بغنائمَ يتركُها المهزومُ كالسّلاحِ والعَتاد والأموالِ، فهذه تُعَدُّ غنيمةً للمُنتصِر، وقد قسّمها اللهُ تباركَ وتعالى في كتابِه الكريم فقال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (١).

أما الأنبياءُ السابِقون فبعضُهم لم يُقاتلْ، ولم يُشْرَعْ لهم الجهادُ: كهودٍ وصالحٍ وشُعيبٍ وإبراهيمَ ولوطٍ وزكريا ويحْييَ وعيسَى.. وبعضُهمْ قاتلَ وجاهَد ولم تحِلَّ لهم الغنائِم، بل كانت تُتْرَكُ حيث هي وتُحرق، كموسَى وداوُدَ وسُليْمان.. عليهم الصلاةُ والسلام.

الرابعة : «وأُعْطِيتُ الشَّفاعَة.» : والمُرادُ بها الشفاعةُ العُظمَى لفصل الخِطابِ بيْن الخلائِق أجْمعينَ، حتى يستريحَ الخَلْقُ من أهوالِ الموقِفِ ثم تتوالَى بعد ذلك الشّفاعاتُ الصُغرى للأنبياءِ والأوْلياءِ والصالِحين.

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤١.

الخامسة: «وكانَ النَّبيُّ يُبْعَثُ إلَى قَوْمِهِ خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلَى النَّاسِ عامَّةً»: فرسالةُ الإسلامِ عامّةٌ إلَى الثَّقَلَيْنِ من الإنْسِ والجِنِّ، وهي تتخطَّى حُجُبَ الزمانِ والمكانِ إلَى أنْ يرِثَ اللهُ تبارَكَ وتعالَى الأرضَ ومن عليها..